شعر نزار قبّاني الموجّه إلى جمال عبد الناصر دراسة في النسق الثقافي

المدرس الدكتور
أحمد طعمة حرب
المديرية العامة لتربية البصرة

المدرس الدكتور
فرحة عزيز محسن
جامعة البصرة/ كلية التربية للعلوم الإنسانية

الملخص:-

يعالج هذا البحث الموسوم بـ (شعر نزار قباني الموجّه إلى جمال عبد الناصر دراسة في النسق الثقافي) مجموعة من قصائد الشاعر، وبيان أثر الانساق الثقافية المخبوءة فيها والمغطاة بعناصر الجمال من ناحية؛ إلاّ أنّها تحوي بداخلها كثيراً من عناصر الكذب والزيف والنفاق من ناحية ثانية فهي على ذلك نصوصاً نسقية تقول شيئاً وتخفي آخر تبدي الجمالَ وتخفي القبحَ.

وقد عَمد الباحثان إلى كشف هذه الانساق وبيان أثرها على نصوص الشاعر ومتلقيها.

Nizar Qabani's Poetry Directed to Jamal Abdul-Nasir: A Study in the Cultural Pattern

Dr. Ahmed Touma Harb
General Directorate of Education in Basrah
Dr. Farha Aziz Mohsin
University of Basrah / College of Education for Human Sciences

Abstract:

The present research aims at uncovering the cultural patterns in the poetry of Nizar Qabani devoted for the Former Egyptian President Jamal Abdul-Nasir. The researchers showed these patterns and explained how they affect deconstructing the text and violating its meanings.

The research consisted of three sections preceded by an introduction and a prelude and followed by results and references. The prelude was devoted to talk about the political life of the Former Egyptian President Jamal Abdul-Nasir. Section one tackled the concept and terminology of the pattern and how old Arab and Western critics studied it. Section two studied the patterns of authority like gut instinct and knowledge. Section three displayed the social patterns like treachery, treason and silence.

المقدمة:-

يعدُّ شعر نزار قبّاني علامةً مميزةً في الشعر الحديث لمّا يحويه من عناصر ابداعية وجمالية وطاقات تعبيرية كبيرة، إلاّ أنّ بعض قصائده . التي هي قيد البحث . تخللّتها كثيرٌ من الأنساق الثقافية المخبوءة تحت الغطاء الجمالي ممّا يجعل هذه القصائد تبدي شيئاً وتخفي آخر، فظاهرها يعبق بالجمال والإبداع؛ إلاّ أنّ في أعماقها كثيرٌ من الكذب والزيف والنفاق، وإنّ سبب اختيار هذا البحث هو عدم وجود دراسة تخصّ هذه النصوص من وجهة نظر النقد الثقافي تكشف الأنساق المخبوءة تحت ما هو جمالي.

وقد حاول الباحثان قدر جهدهما متابعة هذه الأنساق وكشفها، وبيان آثارها على النص ومتلقيه.

وجاء البحث بمبحثين سبقتهما المقدمة والتمهيد وتلتهما النتائج وقائمة بالمصادر والمراجع.

حيث تناولنا في التمهيد: مفهوم النسق لغوياً واصطلاحياً وروده في التراث العربي والدراسات الغربية.

وإنّ المبحث الأول كان بعنوان: الانساق السياسية . وتناولنا فيه العديد منها: مثل نسق التقديس، والتفوق المعرفي، والفحولة... وغير ذلك.

أمّا المبحث الثاني: فكان بعنوان: الأنساق الاجتماعية والتراثية، وتناولنا فيه انساق الغدر والخيانة والنفاق، والصمت،.....و غيرها.

وقد اعتمد البحث على كثيرٍ من المصادر التراثية والثقافية والتاريخية من أجل بيان الصورة للمتلقي.

التمهيد

النسق في المفهوم والمصطلح

لمعرفة مصطلحٍ ما وعلاقته بالثقافة التي ينتمي إليّها أو نُقل لها، لا بُدَّ من معرفة جذره اللغوي وعلاقته بالسياقات الثقافية التي نشأ فيها، وذلك من خلال:

١ـ المفهوم اللغوي للنسق:

إنّ للنسق أصلاً لغوياً في لسان العرب، وقد ذكرت معاجم اللغة عدّة معانٍ له. منها: ما ذكره الفراهيدي في معجم العين: ((النسق من كلِّ شيءٍ ما كان على نظامٍ واحدٍ عامٍ في الاشياء.))[١].

أمّا صاحب معجم مقاييس اللغة، فيرى أنّ((النون والسين والقاف أصل صحيح يدلّ على تتابع في شيء، وكلامٌ نسق جاء على نظامٍ واحدٍ، وقد عُطف بعضه على بعض، وأصله قولهم ثغرٌ نسِق إذا كانت الاسنان متناسقة متساوية))[٢].

وفي اللسان ((إنّ النسق من كلّ شيء ما كان على طريقة نظامٍ واحدٍ عامٍ في الاشياء))[٣].

وقد تابعه على ذلك صاحب تاج العروس[٤].

ومن هذا يتبيّن لنا أنّ لفظة (نسق) تدل على التنظيم والترتيب والتنسيق والتتابع والانتظام بأمرٍ عامٍ في الاشياء حيث يصبح هذا النسق منظومة فكرية تؤثّر على المتلقين له فتجعلهم يسيرون وفقه ويستهلكونه بصورة شعورية أو غير شعورية ؛فالثقافة تصبغ هذا النسق بميزاتها وخصائصها وتفرضه على متلقيها من جمهورها.

٢ـ المفهوم الاصطلاحي للنسق الثقافي:

احتلّ موضوع النسق الثقافي أهمية في الدرس الثقافي، فقد كُتب عنه الكثير، وقد ردّ إلى دراسات كلود ليفي شتراوس[٥]، والنقاد الثقافيين من بعده، إلاّ إنّ البحث يرى إنّ النقّاد العرب القدامى لم يغفلوا هذا المصطلح، وقد استعملوا تسمياتٍ عديدة تدل عليه.

وسنبيّن بعضاً من هذه التسميات من خلال ما يأتي:

أوّلاً- النسق الثقافي في التراث العربي:

لقد رأينا فيما سبق أنّ النسق يدل على التنظيم والترتيب في الأشياء فيصبح ضابطاً لها يميّزها ويحدّد خصائصها فيغدو أمراً مهماً في الأشياء التي تنتجها الثقافة وتدخلها في حيّزها، ولمّا كان الشعر أحد أهم منجزات الثقافة العربية وعلومها حتى أصبح ديوان العرب[٦]. فأصبحت هذه الانساق مغروسةً في هذه الثقافة لاسيّما في الجانب الأهم منها وهو العملية الابداعية الشعرية.

فقد حدّد النقّاد العرب هذه الانساق وأجبروا الآخرين على السير وفقها وذلك حينما جعلوا منها قواعدَ ثابتة لا يجوز الخروج عليها ، فقد قال ابن قتيبة واصفاً أجزاء القصيدة العربية وجاعلاً منها نسقاً يحتذى به، إنّ مقصّد القصيد إنّما ابتدأ فيها بذكر الديار والدِمن والآثار فبكى وشكى وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الضاعنين. ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكى شدة الوجد وألم الفراق، فإذا علم أنّه استوثق من الاصغاء إليه والاستماع له عقّب بإيجاب الحقوق فرحل في شعره وشكى النصب والسهر وسرى الليل وحر الهجير...والشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب وعدل بين هذه الأقسام، ولم يجعل واحدةً منها أغلب على الشعر وليس لمحدث الشعراء أن يخرجَ على مذهب المتقدمين في هذه الأقسام، فيبكي على منزلِ عامرٍ أو مشيد البنيان؛ لانّ المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافي وليس له أن يرحل على حمارٍ أو بغلٍ ؛ لأنّ المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير وليس له أن يرد على الماء العذب الجاري؛ لأنّ المتقدمين وقفوا على الاواجن و الطواني أو يقطع إلى ممدوحه النرجس والآس؛ لأنّ المتقدمين جروا على قطع الشيح[٧].

فابن قتيبة قد أشار إلى نسق ثقافي متغلغل في عمق الشخصية العربية عبر أهم منظوماتها وأبرز منتجاتها ألا وهو الشعر وأقسامه وأساليبه التي جعل منها انساقاً ثقافية تؤثر في المتلقي وتأخذه باتجاهها من حيث يشعر أو لا يشعر وهذه في الحقيقة إشارة إلى الأنساق الثقافية ؛ لأنّ البنية الظاهرية لهذه الأقسام التي ذكرها ابن قتيبة تبدو قضايا فنية لكن بنيتها الداخلية تحتوي على بعض العيوب ومنها التقوقع على الماضي وتقديس

التراث وجعله مقياساً للحاضر وعدم القدرة على مغادرة هذا المنجز الذي لا يتناسب ذوقياً مع الحياة الحاضرة.

إنّ هذه الأقسام التي ذكرها ابن قتيبة هي بنيات ثقافية تتداخل في الخطاب النقدي الذي يحاول تركيزها بوصفها جزءاً من منظومة الثقافة التي لا يمكن الفرار منها.

أمّا ابن رشيق القيرواني فقد أشار إلى عدّة انساق ثقافية تتمحور حول تمجيد الذات وإعلاء الصفات،وإنّ هذه الأنساق إنّما يُعبَّر عنها بالشعر الذي هو موطن لها.

فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وذكر أيامها وأوطانها النازحة وفرسانها الأنجاد وكرمائها الاجواد مما أدّى بهم إلى توهمّ أعاريض جعلوها موازين الكلام[٨]، فالصفات التي ذكرها هي صفات ثقافية؛ لأنّها دخلت في حيّز الاستهلاك الجماهيري وأصبحت أنساقاً تحتذى.

وقد أشار ابن طباطبا إلى النسق بفكرة الاقتداء بالأوائل فقال: على الشاعر أن يسلك سبيل من كان قبله ولا يقتدي إلاّ بالمحسن[٩]، فالاقتداء والتقليد نسقان مختاران من الثقافة والمؤسسة النقدية.

وإلى الفكرة نفسها أشار صاحب الوساطة برؤيته بأنّ العرب تروي وتحفظ أشعار بعضها البعض[١٠].

وأشار القرطاجني إلى نسق التقليد والاقتداء بالفحول، فالشاعر المجيد عنده هو من لزم فحلاً وأخذ عنه[١١].

وذكر صاحب الموازنة أنّ النسق بلفظ ((مذهب الاوائل))، فقال عن البحتري :((إعرابي الشعر مطبوع على مذهب الاوائل وما فارق عمود الشعر))[١٢].

فمذهب الاوائل هو طريقتهم بالنظم وانشاء المعاني وتكوين النص على وفق الثقافة المتشكلّة في الذهن والحائزة على قبول المتلقي الذي يستهلك هذه الطرق من النظم. فيجد فيها الرغبة بالمتابعة على أساسها.

أما نسق(الاصطفاء) فقد أشار إليه قُدامة بن جعفر من خلال الصفات الواجب توافرها في الشخصية وهي العدل والعقل والشجاعة والعفة. و المادح بها مصيب غير مخطئ [١٣].

أما ابن سلاّم فقد أكّد على نسقي الفحولة والاستبعاد فالفحولة تكمن في طبقاته التي خصَّ بها الشعراء الفحول أما الاستبعاد فهو يظهر جلياً عندما جعل للمراثي طبقةً منفردة وللرجز طبقة، وترك بعض شعراء اليهود دون ترجمة ودون بيان لخصائص شعرهم[١٤].

ومن هذا يتبيّن أنّ النقاد العرب ذكروا النسق وساروا على أساسه؛ لكن دون تنظير له، فهو لديهم أشبه ما يكون بممارسةٍ فعلية دونما تنظير أو تبيّن. أو قد يكون تكريساً له دون كشف معايبه.

ثانياً: النسق الثقافي في الدراسات الغربية

أخذ النسق في الثقافة الغربية مكانةً مميزة، فقد دُرس بعناية ووضع عبر جهاز مفاهيمي منضبط وقد عُرّف تعريفات عديدة، فيرى جيرالد برنس إنّ النسق ،ما أتخذ مساراً حسب نهجٍ ما وهو يتعلق بالأداء أو التأسيس أو الإحالات[١٥].

أما نيكلاس لومان فيرى بأنّه شيءٌ فنيٌ وأداة تخطيط وأداة لتشكيل المؤسسات الاجتماعية وهو يساعد المخططين الذين همهم الوحيد إعادة العلاقات السائدة وعقلنتها[١٦].

أما ميشيل فوكو فيرى أنّ النسق علاقات تستمر وتتحوّل بمعزلٍ عن الاشياء التي تربطها[١٧]، وأنّ الثقافة بمجملها نسق من الرموز أو علامات التحليل اللغوي[١٨]، وهو يعمل على بلورة التفكير الأدبي في النص، كما يحدّد الأبعاد والخلفيات التي تنتجها الرؤية[١٩].

ومن هنا أصبح النسق دالاً على تاريخ الثقافة والفكر الاجتماعي بصورةٍ عامة حتى أصبحت الانساق أنماطاً لتحديد الخاصية الكلية للثقافة بشكل عام[٢٠].

وقد تناول النقاد العرب المحدثون النسق الثقافي بصيغته الغربية ولم يضيفوا عليه شيئاً . حسب اطلاع البحث . .

المبحث الأول

الأنساق السياسية

إنّ للسياسة تأثيراً بالغاً في حياة الفرد والمجتمع وإنّ السلطة السياسية هي قادرة على فرض الأوامر ووجوب تنفيذها بالإرادة أو الإكراه.

وقد تكون هناك سلطات أخرى؛ لكنّها قد تكون ذات طبيعة اختيارية كالعادات والتقاليد والعقائد الدينية، وقد تُفرض . أحياناً . على الفرد والمجتمع [٢١].

وقد تتفق هذه السلطات فتكون في صف واحد كالسلطتين الدينية والسياسية فيتآزران فيما بينهما؛ لأنّ السلطة السياسية في مجتمع ديني كالمجتمع العربي تحتاج إلى سلطة أخرى لدعم وجودها واستمرارها. وهي السلطة الدينية مما يدفعهما للتعاون عبر قنوات عديدة.

وإنّ الشعراء على مر العصور كثيراً ما يتماهون بالسلطة ويدافعون عنها لاسيّما السلطة السياسية وهم يستخدمون الدين ومرموزاته وسيلة إعلامية للتقرّب إلى السلطة السياسية والأخذ من السلطة الدينية أو بعض اتجاهاتها من أجل تكريس السلطة السياسية عبر إضافة كثير من القداسة على السياسيين والحكام حتى وإن كانوا طغاة وقتلةً ؛ لأنّ بعض الشعراء العرب . في كثير من الأحيان . يمجدون الطغاة ويدافعون عنهم [٢٢] .

وإنّ الشاعر نزار قباني واحد من الشعراء العرب الذين تحكمت بهم انساق الثقافة العربية التي حكمت النص الشعري وجعلته يدور في فلك السلطة.

وفيما يلي توضيح لهذه الأنساق:

١- انساق التقديس

إنّ المقدّس هو كل ما يرتبط بالدين ورموزه وتعبيراته [٢٣]، ولما كان له تأثير بارز في الفرد والمجتمع إذ أنّ إضافة رموز القداسة إلى السلطة أمر تطرب له السلطة بكل أصنافها. ومن ذلك قول نزار قباني :

قتلناكَ يا آخرَ الأنبياءِ

قتلناكَ

ليس جديداً علينا اغتيال الصحابة والأولياء

فكم من رسولٍ قتلنا

وكم من إمامٍ ذبحناهُ

وهو يصلي العشاء

فتاريخنا كلّه محنةٌ

وأيّامنا كلّها كربلاء[٢٤]

إنّ ربط الحاكم بالمقدسات نسق تراثي قديم سار عليه الشعراء منذ العصر الأموي كقول الفرزدق مادحاً سليمان بن عبد الملك :

أنتَ الذي نعت الكتابُ لنا في ناطق التوراة والزُّبرِ

كمْ كان من قسٍّ يخبّرنا بخلافةِ المهديّ أو حَبْرِ

جعل الإله لنا خلافته بُرْءَ القروحِ وعصمةَ الجبرِ[٢٥]

وقوله يرثي الحجّاج:

وماتَ الذي يرعى على الناس دينَهم ويضربُ بالهنديّ رأسَ المُخالفِ[٢٦]

إنّ النص قد يقع تحت تأثيرات عديدة كالتراث واللغة والدين والجنس والأعراف والتقاليد والسلطة والمجتمع و القبيلة[٢٧].

وإنّ ما ذكره الشاعر من ربط بين جمال عبد الناصر بوصفه سياسياً برموز الدين : الأنبياء ، الصحابة ، الائمة ، الأولياء ، هي محاولة إضافة القداسة إلى سلطة الحاكم وهذه انساق متجذرة في الثقافة العربية من أجل كسب ودّ شرائح من الجمهور ودغدغة مشاعرهم عن طريق العواطف الدينية و مرموزاتها من أجل تأييد السلطة .

فالشاعر هنا يصف موت عبد الناصر بالقتل وأنّ سبب هذه الجريمة باعتقاده إنّ الشعب العربي الذي طالما قتل الأنبياء (ع) والصحابة والأولياء الصالحين كالحسين(ع) هو مَنْ تسبّب بهذه الجريمة و إنّ هذا النص الذي يفيض بالجمال والعذوبة ورقة المشاعر والعواطف المتأججة والربط بين الماضي والحاضر، لكننا إذا دققنا النظر فيه نجده مبتعداً عن أرض الواقع فهناك بون واسع ما بين المقدس(النبي، الصحابة ،

الأولياء) وبين السياسي الحاكم المتمثل بجمال .الذي يفتخر بأنّه قبض على ثلاثين ألفاً من معارضيه في نصف ساعة [٢٨].

ومن هذا نرى أنّ الشاعر سار على وفق المنظومة النقدية التي ترى أنّ الكذب محمود في الشعر [٢٩].

ويقول في نصٍ آخر مقرناً جمال عبد الناصر بالنبي موسى (عليه السلام)وما حدث له مع قومه:

تركناك في أرض سيناء وحدكْ

تكلِّم ربَّك في الطور وحدكْ

وتعرى وتشقى وتعطش وحدكْ

ونحن هنا نجلس القرفصاء[٣٠]

ألقى الشاعر بما حدث من هزائم على عاتق الشعب؛ لأنّه ترك الرئيس ولم يدافع عنه، فإذا كان الرئيس كالنبي موسى (عليه السلام) مختاراً مقدساً فأنّ أبناء شعبه هم قوم موسى الذين لا يطيعون الأوامر ويستحقون العذاب.

وقد تناسى الشاعر في قمة عواطفه وقوف الشعب المصري مع جمال عبد الناصر الذي أعلن الانسحاب من المعركة و جعل البلاد مفتوحة أمام العدو، مما سبّب خسارة جيشه و إلقاء سلاحه [٣١].

إنّ هذا الخطاب الزائف الذي يعلي من الحاكم وشأنه ليس خاصاً بنزار وإنّما هو نسق قديم سار عليه الشعراء العرب كقول الفرزدق راثياً الحجّاج :

ومات الذي يرعى على الناس دينهم ويضرب بالهندي رأس المخالف

فليت الأكف الدافنات ابن يوسفٍ تقطّعن إذ يحثين فوق السقايفِ[٣٢]

وقوله في يزيد بن عبد الملك:

لو كان بعد المصطفى من عباده نبيٌ لهم منهم لأمر العزائمِ

لكنتَ الذي يختاره الله بعدهُ لحمل الأمانات الثقال العظائمِ

لكمْ أبطحاها الاعظمان وسيلها لكم حين يرمي موجها بالعلاجم

ورثتم خليل الله كلّ خزانةٍ وكل كتاب بالنبوةِ قائمِ[٣٣]

وكقول جرير واصفاً الحجّاج:

دعا الحجّاج مثل دعاء نوحٍ فاسمع ذا المعارج فاستجابا

صبرتَ النفس يا بن أبي عقيلٍ محافظةً فكيف ترى الثوابا

ولو لم يرضَ ربّكَ لم ينزّل مع النصر الملائكة الغضابا

إذا سعر الخليفة نارَ حربٍ رأى الحجّاج أثقبها شهابا[٣٤]

إنّ ما تفوه به نزار في رثائه لجمال وجعله كنبي مرسل خطاب نسقي سار عليه أغلب الشعراء العرب في تعاملهم مع السلطة؛ لأنّهم ينطلقون من رؤى تبرر لهم هذا الزيف والكذب والادعاء، فالشعر محمود به الكذب[٣٥]. و إنّ أعذب الشعر أكذبه[٣٦].

إنّ اندفاع الشاعر ناتج عن هذا النسق المتجذّر في نفسه الذي قلب الخطاب وأحاله إلى قبح؛ لأنّه تناسى تحت وطأة هذا النسق التضحيات الكبيرة التي بذلها أبناء الشعب في المعركة . ووطأة جمال عبد الناصر عليهم واعتقاله لعدد كبير منهم وايداعهم السجون .

لم يهتز ضمير الشاعر لآلاف الضحايا ؛ولكنه اهتز لموت جمال عبد الناصر الذي يشبهه بالنبي موسى (عليه السلام) مدعياً أنّ العرب سبب موته بالرغم من أنّه مات بمرض السكري [٣٧] .

ثم يزداد انفعال الشاعر فيجعل كل المقدسات تتهاوى أمام جمال عبد الناصر وقداسته، فيقول:

والدنا جمال عبد الناصر

الزرع في الغيطان

والأولاد في البلد

ومولد النبي والمآذن الزرقاء

والأجراس في يوم الاحد

وهذه القاهرة التي غفت

كزهرة بيضاء في شعر الأبد

يسلِّمون كلّهم عليك

يقبّلون كلّهم يديك

ويسألون عنك كلّ قادمٍ إلى البلد

متى تعود للبلد[٣٨]

تظهر المقدسات هنا المتمثلة بالمولد النبوي الشريف والمآذن والاجراس بكل قداستها وما تمثله من شيء عظيم يركعون أمام عبد الناصر ويقبلون يديه.

وليس في خطاب نزار هذا إلا إعادة للخطاب الشعري القديم الذي يجعل من الزعيم والقائد فوق مستوى الجميع بغض النظر عن كذبه أو صدقه.

٢- نسق التفوق المعرفي

يشكّل هذا النسق مكانة بارزة في الثقافة العربية ، فقد أشار قدامة بن جعفر إلى الصفات التي يمدح بها، وهي أربعة : الحلم والعلم والشجاعة والعقل ، ونرى أن هذا النسق قد أضيف إلى اشخاص عدة ابتداء من عصر الصحابة حتى قيل أنّ ابن مسعود كان يقول في عمر بن الخطاب : ((لو أنّ علم عمر وُضع في كفة ميزان ووضع علم أحياء الأرض في كفة لرجح علم عمر بعلمهم))[٣٩].

وقد وصف الإمام علي (ع) بالعلم ومعرفته بكتاب الله وسنن نبيه والقضاء ولم يقل أحد قبله : ((سلوني)) إلاّ هو[٤٠].

وقد وصف أبو جعفر المنصور بالعلم والشجاعة والمشاركة الجيدة في الأدب رغم جبروته وحزمه[٤١].

إنّ محاولة ربط الحاكم بالعلم قد تكون أمراً حقيقياً وقد تكون منتجاً ثقافياً؛ لأنّ هذه الصفة اطلقت على أغلب الخلفاء الامويين والعباسيين ومن بعدهم من حكّام وأتخذها الشعراء وسيلة دعائية تأثراً بالنسق المتجذر في النفوس .

ولا شك أنّ نزار سار على هذا النسق فقال في وصف جمال عبد الناصر ورثائه:

نزلت علينا كتاباً جميلاً

و لكننا لا نجيد القِراءة

وسافرت فينا لأرض البراءة

ولكننا ما قبلنا الرحيلا [٤٢].

إنّ الحاكم نزل كتاباً من السماء على . حد تعبير. الشاعر بما يمثل الكتاب من رمز للأدب والعلم والمعرفة والفحولة.((فالأدب ذكر لا يحبّه إلا الذكور من الرجال ولا يبغضه إلاّ مؤنثهم))[٤٣] ،وهنا تبرز فحولة الحاكم ومقدار علمه؛ لأنّه أهلٌ لهذه الصفة . أما أبناء الشعب فهم جهلاء لا يجيدون القراءة وبالتالي هم غير خليقين بهذا الفحل ولا يستحقونه

إنّ كل نص مهما بلغت حداثته يجيء إلى الوجود معتمداً على نصوص وشفرات ولغات سابقة [٤٤].

ولربما أسقط نزار في هذا النص ما قد يعانيه من ضعف على الأضعف منه ، وهم أبناء الشعب ؛لأنّ الإنسان المقهور يلعب دور المعتدي ويسقط كل ضعفه وعجزه على الضحايا الأضعف منه [٤٥].

ويقول في نصٍ آخر:

قتلناك يا جبل الكبرياء

وآخر قنديل زيت

:

لماذا قبلت المجيء إلينا

فمثلك كان كثيراً علينا

:

لماذا ظهرت بأرض النفاق

لماذا ظهرت

فنحن شعوب من الجاهلية

:

نفضت غبار الدراويش عنا

أعدت إليّنا صبانا[٤٦]

الحاكم عند الشاعر يمتلك عقلاً ثاقباً يضيء الطريق لأبناء شعبه، بينما هو شعب من الجاهلية بما يعني هذا الوصف من التخلف والإلحاد . وهم بالتالي يصدقون بأقوال الدراويش التي أزالها عنهم هذا الحاكم .

لقد قام الشاعر من خلال هذه الانساق الثقافية بقلب القيم الحقيقية المتمثلة بالعلم والمعرفة إلى قيم شعرية مجازية ليقدم لنا شخصية خيالية تختلف اختلافاً جذرياً عمّا هي في الواقع عبر تصوير الحق بصورة الباطل ، وتصوير الباطل بصورة الحق وهو دال نسقي تشعرنت به الذات الثقافية العربية [٤٧].

٣-نسق الفحولة-الشجاعة

تعدّ الفحولة إحدى أهم السمات التي تهتم بها الشخصية العربية المجدة للقوة، وإنّ من تمظهراتها الشجاعة التي يجب أنْ يتحلى بها مَنْ يريد الوصول بأمته إلى مراتبها العليا، وقد عمد الشاعر إلى تركيز هذه القيمة في الحاكم وجعله أهلاً لها دون أبناء الشعب، فقال :

قتلناك يا جبل الكبرياء

وآخر قنديل زيت

يضيء لنا في ليالي الشتاء

وآخر سيف من القادسية[٤٨]

وصف الشاعر الحاكم بالشجاعة فهو عنده سيف من سيوف القادسية يرمز بذلك إلى الأبطال والقادة الذين شاركوا في تلك المعركة إذ أنّ العربي كثيراً ما يهيم بأبطاله الخارقين[٤٩].

فهنا يعمل معادلة بين ماضٍ مجيد متمثِّل بأبطال القادسية وبين حاضرٍ قائم على النفاق ليس فيه إلاّ سيفاً واحداً إلاّ وهو جمال الذي جاء من تلك العصور الغابرة.

ويقول في نصٍ آخر:

رفيق صلاح الدين هل لك عودةٌ

فأنّ جيوش الروم تنهى وتأمر

رفاقك في الأغوار شدّوا سروجهم

وجندك في حطّين صلّوا وكبّروا

تغنّي بك الدنيا كأنّك طارقٌ

على بركات الله يرسو ويبحرُ[٥٠]

الحاكم عنده شجاع كأسلافه صلاح الدين الذي هزم الروم وطارق بن زياد الذي فتح الأندلس، ولكنه في الحقيقة علل هزائمه في معركتين بأنّه كان ينتظر أعداءه من الشرق فجاءوه من الغرب ومن ثم هو من أصدر أمر الانسحاب للجيش المصري وتسليم الاسلحة الضخمة للعدو بعد أن مات رجاله من الجوع والعطش [٥١] .

ثم يضيف صفة أخرى وهي قيمة شعرية أيضاً فيقول:

أتسأل عن أعمارنا أنت عمرنا

وأنت لنا المهدي أنت المحرّر

وأنت ابو الثورات أنت وقودها

وأنت انبعاث الأرض أنت التغيّر[٥٢]

إنّ ما ذكره نزار في صفات الشجاعة هي قد تكون في الحقيقة في شخصية جمال عبد الناصر ، ولكن ما يؤخذ عليه حو تحويل هذه القيم إلى قيم ثقافية وتقديم صورة الحاكم بطريقة مبالغ فيها جعلت منه شخصية خيالية خارقة تكتسب كل صفات الاجلال والاعظام برغم كل مشاكله وهزائمه وجبروته وطاغوته .

٤- نسق الغياب والحضور

إنّ الحضور والغياب على وضعهما أمران طبيعيان، فالإنسان يحضر ويغيب غير أنّ هاتين القيمتين إذا دخلتا حيز الثقافة اختلف وضعهما، فتتحولان إلى قيمتين ثقافيتين.

وقد دأب شعراء العرب منذ القدم إلى هاتين القيمتين الثقافيتين، فالميت يوصف بالحياة أي بالحضور لجميل صنائعه ومفاخره مما يجعل القبول بأمر غيابه أمر تحول دونه الشكوك، فهو الغائب في الحقيقة والحاضر في الذاكرة الثقافية. ومن ذلك قول النابغة في رثاء حصن بن حذيفة بن بدر:

يقولون حصن ثم تأبى نفوسهم وكيف بحصنٍ والجبال جنوحُ
ولم تلفظ الارض القبور ولم تزل نجـوم السماء والاديم صحيحُ
فعمّـا قليلٌ ثم جاش نعيّـه فبات نديُّ القوم وهو ينـوح[٥٣]

هنا يظهر نسق الحضور والغياب بشكل واضح.

وإنّ الشاعر لم يخرج عن المنظومة الثقافية في صنع النص الرثائي الذي يعدُّ من النصوص المقربة إلى النفوس؛ لأنّ فيه لوعة وحزناً وتحرّق أكباد [٥٤].

وقد عمد نزار قباني إلى هذه الثقافة فأنتج نصه من خلالها عند رثائه لجمال عبد الناصر، فقال:

السيّدُ نامْ
السيّدُ نامْ
السيّدُ نامْ كنوم السيف العائد من إحدى الغزواتْ
السيّدُ يرقد مثل الطفلِ الغافي .. في حضن الغابات
السيّدُ نامَ
وكيف أصدّق أنّ الهرم الرابعَ ماتْ؟
القائد لم يذهب أبداً
بل دخل الغرفة كي يرتاح[٥٥]

لقد أعاد نزار في هذا النص المخزون الثقافي التراثي في وصف الفقيد بالغياب والحضور؛ لأنّ المخزون التراثي لعواطف عرق بشري يعدُّ العنصر الأكثر ثباتاً[٥٦].

فالسيّد جمال عبد الناصر غائب في حقيقة الأمر وهو ميّت ، ولكنه في ذهنية الشاعر حي أو أنّه غائب غياباً مؤقتاً / نائم ؛ لأنّ الشاعر لا يريد أن يصدق موته ؛ لأنّه بطل والبطل يشبع حاجات الجماعة إلى التسلّط وملأ الرغبة بالتمايز والجماعة بصورة عامة تعزز صورة البطل وتبرز أعماله وتصفها بالعظمة ؛ لأنّها تحتاج للشعور بالسمو والتغلب على عقدة النقص الحضارية [٥٧] .

ثم ينتقل الشاعر إلى وصف البطل بالحضور الثقافي الدائم، فيقول:

وسيصحو حين تطلُّ الشمسُ..

كما يصحو عطرُ التفاح..

الخبز سيأكله معنا..

وسيشرب قهوته معنا..

ونقول له ..

ويقول لنا..

القائدُ يشعر بالإرهاق

فخلّوه يغفو ساعات..(٥٨)

يظهر في هذا النص نسقا الغياب والحضور فالرجل بالحقيقة سيصحو ثقافياً حين تطلع الشمس وسيشارك جماهيره أكل الخبز وشرب القهوة وتبادل الأحاديث ثم يعود بعد ذلك إلى ذكر نسق الغياب فيقول عنه أنّه مرهق ولابُد أن يغفو ساعات.

إنّ التقاليد والأفكار والحاجات والعواطف الخاصة بالماضي تمثل خلاصة العرق وتضغط بكل ثقلها على الحاضر وإنّ الشعب هو عبارة عن كائن عضوي مخلوق من الماضي وأنّ القادة الحقيقيين للشعب هم التقاليد الموروثة (٥٩).

وبذلك نرى أنّ هذه الأنساق تفعل فعلها في نص الشاعر وتجعله يسير باتجاهها بالرغم من كثرة الملاحظات على المرثي وأعماله وتقلباته السياسية واعتقالاته الكثيرة المتكررة لأبناء شعبه إلا أنّ الشاعر يتناسى ذلك كله ويسير وفق النسق ويعبّر عن ارادته .

إنّ ما يميز الشعر المعاصر هو نزوعه نحو التعبير عن ذاته فهو لا يصف، وإنّما ينقل تجربة(٦٠)

فالتعبير عن الذات هنا وما تمتلكه من اندماج في المرثي جعله يتناسى تحت وطأة الانساق كل المساوئ التي كانت في الحاكم .

ويقول في نصٍ آخر:

وأنتَ سافرتَ ولم تسافرْ..

فأنت في رائحة الأرض . وفي تفتح الأزاهر..

في صوت كلّ موجة وصوت كلّ طائر

في كتب الأطفال في الحروف والدفاتر[٦١]

يظهر المرثي هنا بصورتين هما:غياب وحضور: سافرت/غياب لم تسافر/حضور، لكن الأولى حقيقية السفر بمعنى الموت والثانية ثقافية بمعنى حضور في الذاكرة، ولتأكيد الحضور فقد جعله في كل شيء . في رائحة الأرض وهذا دلالة على الارتباط بها وحالة التلازم بينهما فهو من الأرض وإليها ينتمي روحاً وفكراً غياباً وحضوراً .

وفي تفتّح الازاهر يعني في كل مباهج الحياة وهو في الموجة وكتب الأطفال وهذا دلالة على حضوره ، لذلك نجد الشاعر يحشد كل هذه الألفاظ ويركز هذا النسق ليواجه نسق الغياب وهنا يكون الثقافي بمواجهة الحقيقي.

٥ – **نسق الأبوة**

إنّ الأبوة شكل من أشكال السلطة السياسية يكون الحاكم فيها بمثابة الأب بينما المواطنون هم الابناء ، وهنا يبرز دور الحاكم بالتسلّط باعتباره فحلاً مكتمل النضج يحدّد مصير ابنائه؛ لأنّه الأكثر وعياً منهم [٦٢].

ولو رجعنا إلى الثقافة العربية القديمة لوجدنا أنّ بعض منظرّيها يزيحون المرأة والطفل إلى الهامش وهم يرون أنّ الكلام يضيق في المرأة والطفل وتقلّ الصفات فيهما[٦٣]، وهذا يعني أنّ الصفات الجيدة تتركّز في الفحولة، فإذا أصبح الذكر حاكماً فإنّه يجمع بذلك الفحولة والسلطة. مما يزيح الجميع إلى الهامش باعتبارهم أقلّ عقلاً وكفاءة وقدرةً على التخطيط والتفكير مما يجعل كل هذه السلطات تتمركز بيد الحاكم.

وقد أنطلق نزار من هذا النسق في وصف جمال عبد الناصر في بعض نصوصه، فقال:

والدَنا جمالَ عبدَ الناصرْ:

عندي خطابٌ عاجلٌ إليكْ..

مِن أرض مصرَ الطيبةْ

من ليلها المشغول بالفيروز والجواهرِ

ومن مقاهي سيّدي الحسين. من حدائقِ القناطرِ

من ترُع النيل التي تركتها..

حزينةَ الضفائرِ..

عندي خطابٌ عاجلٌ إليكْ

من الملايين التي أدمنتْ هواك

من الملايين التي تريد أن تراكْ

عندي خطابٌ كلّهُ أشجان[٦٤]

خاطب الشاعر الرئيس بالوالد، والمعنى هنا لا ينصرف إلى المعنى الحقيقي بل يذهب إلى الابوّة السياسية التي تعني سيطرة الحاكم على جميع أبناء الشعب باعتبارهم ابناؤهُ، فالخطاب الذي ينقله الشاعر إلى الرئيس الحي ثقافياً والمتوفي واقعياً لا يمثّل خطاب انا الشاعر بل هو خطاب نحن؛ لأنّه صادر من الجماهير المحبّة للرئيس والمدمنة هواه باعتبارهم أبناؤه المفجوعين به. وهذا الخطاب يناقض قول الشاعر في قصيدةٍ أخرى:

تركناكَ في أرض سيناء وحدك

تكلّم ربّك في الطور وحدك

وتعرى وتشقى وتعطش وحدك[٦٥]

ثُم يبالغ الشاعر في وصف أبوّة الحاكم، فيقول:

والدّنا جمال عبد الناصرْ:

الحزنُ مرسومٌ على الغيوم، والاشجار، والستائرِ

وأنتَ سافرتَ ولم تسافرِ..

فأنتَ في رائحة الارضِ، وفي تفتّح الأزاهرِ..

في صوت كلِّ موجةٍ. وصوتَ كلّ طائرِ[٦٦]

تبدو في هذا النص فكرة الأبوة السياسية واضحة فالشعب بكل طبقاته هم أبناء الحاكم وهو المتحكم فيهم وفي مصيرهم وبعد موته يبقى الحزنِ مرسوماً عليهم؛ لأنّه موجود في كلّ شيء في الطبيعة والانسان وهو موجود في رائحة الأرض وصوت الموجة ودفاتر الأطفال وسيف الثوار، فهو أبو الكل وبفقدانه سوف يفقد الشعب الأبوة والعقل المفكر والمدبرّ.

وفي هذا الخطاب وأمثاله انصياع واضح للسلطة على حساب الشعب الذي يبدو عقيماً وغير ولاّدٍ لقادة آخرين وفي هذا ازدراء لشعبٍ كامل وتقليل من أهميته.

المبحث الثاني

الأنساق الاجتماعية والتراثية

إنّ للمجتمع والتراث أثراً بالغاً في تشكيل النص الشعري، و إنّ النسق هو مواجهة اجتماعية وأخلاقية تفرضها الوضعية الاجتماعية فيقبلها . ضمنياً . وجمهوره، وهكذا سوف يكون أفق النصوص المفردة والانجازات الفردية هو النص الثقافي الذي يجعلها ممكنة[٦٧].

وللنسق الاجتماعي أثر بارز ووظيفة فاعلة في توجيه سلوك المجتمع[٦٨].

ولمّا كان المجتمع مجموعة من الأفراد الذين يسكنون بقعةً جغرافية محدّدة معترفاً بها من الناحية السياسية تجمعهم مجموعة من المقاييس والعادات والتقاليد والقيم الاجتماعية والأهداف المشتركة التي أساسها اللغة والتاريخ والمصير المشترك[٦٩]. فقد أصبحت القيم واللغة والدين أنساقاً ثقافية يقوم عليها ذلك المجتمع فترتكز في مخيلته وعندما يراد صياغة نص ما فإنّ منشأهُ ينطلق من خلفيات وتصورات قَبْلية محكومة بسياقات ثقافية وتاريخية[٧٠].

إنّ المجتمع بأنساقه والتراث بكل معالمه وصياغاته وأبطاله وآثاره وأفكاره ورؤاه يلقي بضلاله على النص فيكون عاملاً مهماً من عوامل وجوده.

وسنتناول في هذا المبحث الأنساق الاجتماعية والتراثية التي ساهمت في تشكيل نص الشاعر نزار قباني قيد البحث.

١. أنساق الغدر والخيانة والنفاق

إنّ الغدرَ والخيانة والنفاق أنساق اجتماعية محفورة في الذاكرة الإنسانية تؤثّر في البعض فتجعلهم يسيرون وفقها، وهي أمراض اجتماعية خطيرة يصاب بها بعض ابناء المجتمع؛ لأنّ العقل الإنساني ينمو ويتطور وفق القالب الاجتماعي الذي يعيش فيه[٧١]؛ ولكنّ وصف مجتمع كامل بأنّه مصاب بهذه الآفات أمرله خطورته لا سيّما إذا وصف المجتمع بالخيانة والغدر من أجل حاكم أو سياسي.

ومن ذلك يقول نزار قباني في رثاء جمال عبد الناصر:

سقيناك سُمَّ العروبة حتى شبعتْ

رميناكَ في نار عمّان حتى احترقتْ

أريناك غدرَ العروبةِ حتى كفرتْ

لماذا ظهرتَ بأرضِ النفاق.. لماذا ظهرتْ؟

فنحن شعوبٌ من الجاهلية[٧٢]

أنشأ الشاعر نصه على وفق مجموعة من الأنساق كالغدر(سقيناك سمُّ العروبة) (رميناك في نار عمّان)، النفاق الذي يعشعش في هذه الأرض التي كان ينبغي لها أن تنصح الرئيس وتقف معه لكنها انقلبت ضده .

هنا يظهر الرئيس المرثي بالشكل المثالي الكامل بينما يظهر أبناء الشعب بأسوء حالاتهم ، وهذا ليس جديداً على الثقافة العربية ، فقديماً وصف الحجاج أهل العراق بالنفاق من أجل عبد الملك بن مروان قائلاً ((والله يا أهل العراق يا أهل النفاق والشقاق ومساوئ الاخلاق [٧٣]))

إنّ نص نزار هذا ليس من بنات أفكاره بل هو منظومة من نصوص أخرى سابقة عليها أصبحت انساقاً محفورة في الذاكرة يسترجعها الشاعر ويبني نصه وفقها.

ويقول في نصٍ آخر واصفاً بعض المشيعين للرئيس جمال عبد الناصر بالكذب والنفاق:

وراء الجنازة سارت قريش

فهذا هشامٌ.. وهذا زيادْ

وهذا يريق الدموعَ عليكَ

وخنجره تحت ثوب الحداد

وهذا يجاهد في نومِه

وفي الصحو يبكي عليك الجهادْ

وهذا يحاول بعدكَ مُلكاً

وبعدك كلّ الملوك رمادْ

وفودُ الخوارجُ جاءت جميعاً

فمَن كفّروك

ومن خوّنوك

و مَن صلبوك بباب دمشق

انادي عليك أبا خالد

واعرف أنّكَ لن تستجيبَ

وإنّ الخوارقَ ليست تُعاد[٧٤]

يصف الشاعر المشيّعين بالغدر والخيانة والنفاق ، فمن شيّعه هو من قتله ،فهم يبكون عليه وكانوا سبباً لموته يظهرون الحزن ويبطنون الفرح يبكون لموته ويتسارعون من أجل الوصول إلى الحكم ،وهذه انساق موجودة حقيقية في المجتمع أو لدى بعض أنبائه ولكنها لا تعبّر عن الكل.

إنّ ما تفوه به نزار قباني يمثل جزءاً من الحقيقة، ولكنه أخفى متعمداً جزءاً آخراً منها، وهو ما يتعلق بسياسة جمال عبد الناصر تجاه خصومه وكيف كان يعذبهم وينتقم منهم وكيف كان يتعامل بقسوة مع أبناء شعبه فمن الطبيعي إذاً أن يحقد البعض عليه أو يأخذ جانب النفاق عليه خوفاً ممن يستخلفونه في الحكم؛ لأنّهم إمتدادٌ له .

فنزار أبدى جانباً من الحقيقة وأخفى جانباً آخر، وهذا ما يجعل نصه كاذباً ومنافقاً سلطوياً ومتغطرساً قامعاً للآخر.

٢- نسق الصمت

إنّ الكلام أمر طبيعي يحتاجه الإنسان ليعبر به عن حاجاته وما يريد أن يوصله، أما الصمت فهو مخترع ثقافي[٧٥]

وإنّ الثقافة العربية . في بعض العصور. كابدت من الشقاء والتسلّط، فلجأت الشعوب إلى الصمت خوفاً من البطش؛ لأنّها لا تمتلك مساحة كبيرة من الحرية في التعبير عما تريد.

وقد أشار نزار قباني إلى الصمت بقوله:

يا سيّدي السلطان

لقد خسرت الحرب مرتين

لأنّ نصف شعبنا ليس له لسان

لأنّ نصف شعبنا

محاصر كالنمل والجرذان

في داخل الجدران[٧٦]

إنّ سببَ خسارة الحرب نتيجة لصمت الشعب عن الحاكم وانفراده بالسلطة نتيجة لدكتاتوريته، وليس هذا بأمرٍ جديد على الثقافة العربية بل أن أغلب حكامها من هذا النوع وإنّ نزار لما انتج نصه إنّما أغترف من هذه الثقافة وموروثاتها ، وقد أعاد عن قصدٍ أو غير قصد انتاج ما هو مهيمن منها ؛ لأنّ للثقافة أثراً بالغاً في تشكيل شخصية الفرد ودفعه الى انتاج العناصر المتمركزة دون شرخ أو قطيعة[٧٧].

ويقول في نصٍ واصفاً صمت الناس عن حقوقهم السياسية والحرية والكرامة خوفاً من السلطان ملهين أنفسهم بتوليف الأشعار وتشطير الأبيات :

نقعد في الجوامعِ

تنابلاً كسالى

نشِّطرُ الأبيات ، أو نؤلّف الأمثالا

ونشحذُ النصر على عدوّنا من عنده تعالى[٧٨]

يكشف النص عن مدى نسق الصمت والخوف والخضوع وعدم القدرة على مساءلة الحاكم واصفاً الناس بأنهم تنابلُ كسالى يطلبون النصر من الله وهنا يظهر نفاق الشاعر وكذبه فماذا يفعل الشعب إذا كان الحاكم يعمل دون تخطيط !؟

ثم أنّ الجيوش التي كانت مع الرئيس أليسوا هم من أبناء الشعب !؟ ألم يكن هناك جيش نظامي يدافع عن الوطن !؟ فلماذا هذا الاستخفاف بالشعب والناس والبسطاء !؟ إنّ هذا من فعل الانساق الثقافية التي تقمع الآخر وتظهر ذات المتكلم بأنّه أفضل منهم .

٣- انساق الشعارات الفارغة

ليس بجديد أن نسمع التمجيد والتصفيق في الثقافة العربية لهذا الحاكم أو ذاك سواء كان صدقاً أم كذباً.

فمنذ القدم والحكام يستميلون الشعراء والكتَّاب والجماهير لا سيّما رؤسائهم بالترغيب والترهيب وبالخوف والطمع[٧٩]

ومن ذلك قول الشاعر:

إذا خسرنا الحرب لا غرابة

لأنّنا ندخلها

بكل ما يملك الشرقيُّ من مواهب الخطابة

بالعنتريات التي ما قتلت ذبابة

لأننا ندخلها بمنطق الطبلة والربابة[٨٠]

يشير النص إلى اللغو والشعارات الزائفة التي يرفعها الحكام قبل وبعد حروبهم وغالباً ما تكون النتائج غير مرضية، ولكن السلطة تستخدم كل الوسائل الدعائية من أجل مصالحها ومن ذلك الخطابة والأغاني والاهازيج، ولكن هل بقي نزار قباني على موقفه هذا تجاه الرئيس؟! أم أنّه قد تحوّل بعد وفاته إلى داعية له وذلك ليرضي خلفاءه في الحكم لا سيّما بعد ان مُنع في عهده من الدخول إلى مصر بسبب هذه القصيدة .

وهنا يظهر تلون الشاعر وعدم ثباته على موقف واحد ولو كان صادقاً في موقفه هذا لثبت عليه. فهو يذم اللغو والنفاق في الناس ويرضى أن يعمل به كمنهج في حياته.

ويقول في موضع آخر من هذه القصيدة :

السرُّ في مأساتنا

صراخنا أضخم من أصواتنا

وسيفنا أطول من قاماتنا

خلاصةُ القضية

توجزُ في عبارة

لقد لبسنا قشرة الحضارة

والروحُ جاهلية

بالناي والمزمار

لا يحدث انتصار[٨١]

يفصح النص هنا عن انساق اللغو والتهريج من أجل السلطة وتحقيق مطامحها ومساعدتها على ذلك ، لكن الكذب يكمن في أنّ الشاعر يقف في هذه القصيدة ضد هذه الأنساق ويكرّسها هو في قصائد أخرى .

٤. الشخصيات التاريخية بوصفها نسقاً

إنّ للتراث تأثيراً بالغاً على المتلقي ومنتج النص؛ لأنّ النص تعبير عن وجهات نظر فلسفية ورؤى اجتماعية مركزية في الثقافة، والشخصية التاريخية هي في حقيقتها تتكون من محورين أولها: واقعي: وهو ما يمثل تاريخ هذه الشخصية مثلما جرى على أرض الواقع بسلبياتها و ايجابياتها.

وآخر: ثقافي: وهو غالباً ما يكون انتقائياً يمثل مزاج المؤسسات الثقافية وما تحبُّ أن تنقله إلى أجيالها.

إنّ نزار قباني عندما رسم صورةً للرئيس جمال عبد الناصر أخذ بانتقاء صفاته، وما يحبّه محبّوه ووجهها توجيهاً شعرياً مغلفاً بالجمال والابداع، ولأجل أن يركّز هذه الصورة استوحى عدداً من الشخصيات المركزية في الثقافة مثل شهرزاد، هشام ، زياد، صلاح الدين، وطارق بن زياد، إلاّ أنّه ركّز على شخصية صلاح الدين لاعتبارات عديدة لعلّ أهمها التشابه بين الشخصيتين في قضية محاربة الآخر الغربي وقضايا الدفاع عن فلسطين.

فالمشهور تاريخياً أنّ صلاح الدين حارب الصليبين[٨٢] في معركة حطين وحرّر القدس بينما اشترك جمال عبد الناصر مع الجيوش المصرية التي قاتلت في فلسطين قبل ثورة ١٩٥٢م ودخل في حربين مع اسرائيل وبريطانيا وفرنسا، لذلك قرن الشاعر جمال عبد الناصر بصلاح الدين، فقال:

تأخّرتَ عنّا.. فالمسيحُ معذّبٌ

هناكَ. وجرحُ المجدليّة، أحمرُ
نساءُ فلسطينٍ تكحَّلن بالأسى
وفي بيت لحمٍ قاصراتٌ وقُصَّرُ
وليمون يافا يابسٌ في حقولهِ
وهل شجرٌ في قبضة الظلم يُزهرُ؟
رفيقَ صلاح الدينَ.. هل لكَ عودةٌ
فإنَّ جيوشَ الرومِ تنهي وتأمرُ[٨٣].

عمد الشاعر في هذا النص إلى وصف جمال عبد الناصر بالشجاعة والاقدام، إذ إنّ الشجاعة واحدة من أهم الصفات التي يتحلى بها البطل في الثقافة، فهو يمتاز عن الشجعان بأنّهم يصغرون أمامه بل وتتصاغر أمامه شجاعتهم[٨٤].

وهنا تظهر الأنساق الثقافية في تشكيل صورة الشخصية سواء كانت المعاصرة التي يخاطبها الشاعر بصورة مباشرة أو التراثية التي استوحاها الشاعر في نصه وهي صورة انتقائية ثقافية تحمل من الكذب والزيف والادعاء الشيء الكثير.

فصلاح الدين الذي حارب الصليبيين هو ذاته الذي عامل خصومه بقسوة وعنف حيث أحرق مدينة المنصورة على أهلها؛ لأنّهم وقفوا ضده[٨٥]

وهو كذلك من أمر باعتقال أسرة الخليفة الفاطمي وفرّق بين الرجال والنساء كي لا يتناسلوا [٨٦]. إلا أنّ نزار قد تحاشى هذا التاريخ السيء مركّزاً على قتاله للروم وذلك ارضاءً للتيار القومي وتلميعاً لصورة صلاح الدين وجمال عبد الناصر على حدّ سواء .

ثم يصف في موضع آخر جمال عبد الناصر ورفاقه بالشجاعة مشبهاً اياه بطارق بن زياد فيقول:

رفاقكَ في الأغوار شدّوا سروجهم
وجندك في حطين . صلّوا وكبّروا
تغنّي بك الدنيا كأنك طارقٌ
على بركات الله يرسو ويبحرُ[٨٧]

ولكي تكتمل صورة البطل جمال عبد الناصر بأنّه معزّ المسلمين فقد قرنه الشاعر بطارق بن زياد القائد البربري الأصل الذي دخل الأندلس بأمرٍ من موسى بن نصير عام ٧١١[٨٨].

ولا ينسى الشاعر شخصيات أخرى كان لها أثر بالغ في التراث العربي فيستوحي شخصيتين هما هشام وزياد ليسيران خلف جنازة جمال عبد الناصر فيقول:

إلى أين كل الأساطير ماتت بموتك

وانتحرت شهرزاد

وراء الجنازة سارت قريش

فهذا هشام وهذا زياد[٨٩]

إنّ زياد وهشام شخصيتان تاريخيتان لهما أثرهما في الثقافة العربية فزياد كان والي العراق بينما كان هشام خليفةً أموياً واستحضارهما هنا يعني استحضار للقوة والسلطة بكل أنساقها وتعالها لينتج بذلك صورة تحمل معاني القوة والعظمة ،ولكن تحمل تحتها كثيراً من المساوئ التي لم يشر إليها الشاعر.

الخاتمة

بعد اتمام البحث بحمد الله توصلنا إلى عدة نتائج أهمها :

١- أشار النقّاد القدامى إلى النسق الثقافي من خلال محاولاتهم لتركيزه في مخيلة المتلقي عبر عدة ألفاظ مثل : مسلك الأوائل ، مذهب الأوائل ، الأصول ، الاقتداء . دونما تقديم جهدٍ تنظيري له .

٢- لعبت الأنساق الثقافية دوراً بارزاً في تشكيل نص الشاعر نزار قباني – قيد البحث – وكانت على نوعين اساسيين أنساق الخضوع وهي كثيرة وانساق الرفض والتمرد وتمثل القلّة.

٣- كان للنسق الديني الأثر البارز في تشكيل نصوص الشاعر إذ قرن جمال عبد الناصر بالأنبياء والاولياء والصحابة ، وهو إعادة انتاج لنسق قديم في الشعر العربي ؛لأنّ للأنبياء والاولياء مكانة كبيرة في نفوس الجماهير وقد يبالغ الشاعر فيجعل المقدسات خاضعة للحاكم.

٤- عزا الشاعر الهزائم التي حلّت بالجيش المصري بقيادة جمال عبد الناصر إلى الشعب المصري؛ لأنّه – في نظره – لم يدافع عنه، وهذا تبرير للفشل السياسي وعدم كفاءة القيادات .

٥- اعاد الشاعر إنتاج النسق القديم الذي يصف الحكام والسلاطين بالمعرفة الفائقة والقدرة والتخطيط و اتخاذ القرارات؛ لامتلاكهم القدرات العقلية التي لا يمتلكها أبناء الشعب والذي لابُد له من اطاعة الحكّام.

٦- كان لنسق الفحولة وتمظهراته كالشجاعة حضور بارز في شعر نزار وهو نسق قديم سار عليه الشعراء القدامى.

٧- قرن الشاعر جمال عبد الناصر ببعض القادة السياسيين القدامى كصلاح الدين الأيوبي وطارق بن زياد؛ لأنهم وقفوا ضد الآخر الغربي ممجداً انتصاراتهم ومتناسياً كل الجرائم التي أرتكبوها لا سيّما صلاح الدين بحق أبناء شعبه .

٨- شكّل نسق الابوة السياسية ملمحاً مهماً في نص نزار واصفاً الرئيس من خلاله بأنّه فحل مكتمل العقل وله القدرة على التفكير واتخاذ القرارات وهو أب وعلى ابنائه أن يسيروا خلفه رغم انكساراته وهزائمه.

٩- علّل الشاعر سبب خسارة العرب الحرب وعدم قدرتهم على أخذ حقوقهم وذلك لانكفائهم على موروثاتهم الشعبية وأنّهم تنابل وكسالى وهو خطاب زائف يظهر مدى ولع الشاعر بالسلطة والدفاع عنها .

١٠. إنّ ما قدمه نزار من صورة مثالية لجمال عبد الناصر هو رغبةً منه للتقرّب إلى التيار القومي الذي كان جمال عبد الناصر قائده وتماشياً مع هذا التيار؛ لأنّ ما بعد جمال عبد الناصر هم رفاقه الذين حققوا الثورة.

الهوامش

(١) كتاب العين ، مادة (نسق).

(٢) معجم مقاييس اللغة ، مادة (نسق).

(٣) لسان العرب ، مادة (نسق).

(٤) ينظر: تاج العروس ، مادة (نسق).

(٥) ينظر: القراءة النسقية ،ص١١٣.

(٦) ينظر: طبقات فحول الشعراء ، ج/١ ص٢٤.

(٧) ينظر: الشعر و الشعراء ج/١ ص٧٤.

(٨) ينظر: العمدة، ج/١ ص٣٠-٣١.

(٩) ينظر: عيار الشعر ، ص٤٣.

(١٠)ينظر: الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص٢٣ .

(١١)ينظر: منهاج البلغاء ، ص٢٧.

(١٢)ينظر: الموازنة ج/١ ص٤.

(١٣)ينظر: نقد الشعر ، ص٩٤.

(١٤)ينظر: طبقات فحول الشعراء ج/١ ص٢٢٩ وما بعدها.

(١٥)ينظر: المصطلحات المصطلح السردي، ص٢٢٨.

(١٦)ينظر: مدخل إلى نظرية الأنساق ، ص٢٦.

(١٧)ينظر: معجم المصطلحات الأدبية ، ص٢١١ .

(١٨)ينظر: القراءة النسقية ، ص٢٦.

(١٩)ينظر: التحليل الثقافي ، ص١٠.

(٢٠)ينظر: السرد العربي القديم الأنساق الثقافية وإشكالية التأويل ص٢٢.

(٢١)ينظر: علم الاجتماع السياسي ، ص١٠١.

(٢٢)ينظر: اسطورة الأدب الرفيع ، ص٥٨.

(٢٣)ينظر: المقدس والمدنس /مقال- نت.

(٢٤)الأعمال الشعرية الكاملة ،ص١٢٥.

(٢٥)ديوان الفرزدق، ص٢٣٢.

(٢٦)م ، ن ، ص٣٦٩.

(٢٧)ينظر: المقموع والمسكوت عنه ،ص١٠.

(٢٨)ينظر: مصر في حربين ، ص٦٥.

(٢٩)ينظر: العمدة ، ج/١ ص٣٦.

(٣٠)الأعمال الشعرية الكاملة ، ص١٢٦.

(٣١)ينظر: مصر في حربين ، ص٥٨.

(٣٢)ديوان الفرزدق ، ص٣٦٩.

(٣٣)المصدر السابق ،ص٥٩١.

(٣٤)ديوان جرير ، ص٢١.

(٣٥)ينظر: العمدة، ج/١ ص٣٦.

(٣٦)ينظر: نقد الشعر ، ص٩٦.

(٣٧)ينظر: الناصرية ثورة بيروقراطية أم بيروقراطية ثورة ، ص٩٩.

(٣٨)الأعمال الشعرية الكاملة ، ص١٣٦.

(٣٩)تاريخ الخلفاء ، ص١٢٠.

(٤٠)ينظر: م.ن، ص١٧١.

(٤١)ينظر: م.ن ، ص٢٥٩.

(٤٢)الأعمال الشعرية الكاملة ، ص١٢٥.

(٤٣)المحاسن والمساوئ ، ص٥.

(٤٤)ينظر: المرايا المحدبة، ص٢٦٦.

(٤٥)ينظر: التخلف الاجتماعي ، ص١٢٨.

(٤٦)الاعمال الشعرية الكاملة ، ص١٢٦.

(٤٧)ينظر: النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية، ص١١٢.

(٤٨)الأعمال الشعرية الكاملة ، ص١٢٦.

(٤٩)ينظر: الاستبداد الرمزي، ص١٥١ – ١٥٢.

(٥٠)الأعمال الشعرية الكاملة ، ص١٤١ .

(٥١)ينظر: مصر في حربين ، ص٤٩ – ٥١.

(٥٢)الأعمال الشعرية الكاملة ، ص١٤٠.

(٥٣)ديوان النابغة الذبياني ، ص١٩٠.

(٥٤)ينظر: المحاسن والمساوئ ، ص٣٤٦.

(٥٥)الأعمال الشعرية الكاملة ، ص١٣١.

(٥٦)ينظر: سيكولوجية الجماهير، ص٤٣.

(٥٧)ينظر: الاستبداد الرمزي، ص١٥٥.

(٥٨)الأعمال الشعرية الكاملة ، ص١٣١-١٣٢.

(٥٩)ينظر: سيكولوجية الجماهير، ص١٥٥.

(٦٠)ينظر: علاقات الحضور والغياب ،ص١١.

(٦١)الأعمال الشعرية الكاملة ، ص ١٣٧.

(٦٢)ينظر: ماهي الابوة السياسية والاقتصادية وكيف انكسرت هذه الابوة. مقال نت.

(٦٣)ينظر: العمدة ج/٢ ، ص٢٣١ .

(٦٤)الأعمال الشعرية الكاملة ، ص١٣٥.

(٦٥)المصدر السابق ، ص١٢٦.

(٦٦)م ، ن ، ص١٣٧.

(٦٧)ينظر: مقامات السرد والأنساق الثقافية ، ص٨.

(٦٨)ينظر: التشابه والاختلاف نحو مقاربة شمولية ص١٥٨-١٥٩.

(٦٩)ينظر: سيسيولوجيا الأزمة المجتمع العراقي إنموذجاً ص٣٣.

(٧٠)ينظر: الانساق الذهنية في الخطاب الشعري ، ص١٣.

(٧١)ينظر: مهزلة العقل البشري ، ص١٦٥.

(٧٢)الأعمال الشعرية الكاملة، ص١٢٦.

(٧٣)العقد الفريد، ج/٣، ص٨٩.

(٧٤)الأعمال الشعرية الكاملة، ص١٢٨-١٢٩.

(٧٥)ينظر: النقد الثقافي، ص٢٠٣.

(٧٦)الأعمال الشعرية الكاملة، ص١٦١.

(٧٧)ينظر: الذاكرة في الرواية العربية ، ص٤٣.

(٧٨)الأعمال الشعرية الكاملة، ص١٦٠.

(٧٩)ينظر: تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي، ص٣٣٦، وما بعدها.

(٨٠)الأعمال الشعرية الكاملة، ص١٥٦.

(٨١)م.ن ، ص١٥٦-١٥٧.

(٨٢)ينظر: سياسة صلاح الدين الأيوبي،ص٢٦٤ ،وما بعدها.

(٨٣)الأعمال الشعرية الكاملة، ص١٤١.

(٨٤)ينظر: البطولة و الأبطال، ص٩.

(٨٥) ينظر: الكامل في التاريخ ، ج/١ ، ص١٨-١٩.

(٨٦) ينظر: تاريخ مصر في العصرين الأيوبي و المملوكي، ص٨٠.

(٨٧) الأعمال الشعرية الكاملة، ص١٤١.

(٨٨) ينظر: الحضارة الأندلسية بأقلام اسبانية ج/١، ص١٧٠.

(٨٩) الأعمال الشعرية الكاملة ١٢٨.

المصادر والمراجع

أولا : الكتب

- الاستبداد الرمزي الدين والدولة في التأويل السيميائي، د. شاكر شاهين ، الاختلاف – الجزائر والضفاف – الرياض وبيروت، الطبعة الثانية ، ٢٠١٤م
- اسطورة الأدب الرفيع ، د. علي الوردي ، دار ومكتبة دجلة والفرات – بيروت ، الطبعة الثانية ٢٠١٠.م.
- الأعمال الشعرية الكاملة نزار قبّاني ، دراسة واعداد : مؤمن المحمدي ، دار الحياة – القاهرة .٢٠١١.م.
- الانساق الذهنية في الخطاب الشعري التشعب والانسجام ، د. جمال بند حمّان ، رؤية – القاهرة . ٢٠١١ .م .
- البطولة والابطال ، د. أحمد الحوفي ،مطبعة مصر – القاهرة ، ١٩٥٧.م.

- تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد مرتضى الزبيدي ، دار الحياة – بيروت ، (د.ت).
- تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف – القاهرة الطبعة السادسة والعشرون ، ٢٠١٠.م.
- تاريخ الخلفاء ، أبو بكر السيوطي ت٩١١هـ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد مطبعة الأمّة – بغداد ، الطبعة الثالثة عشر (د.ت).
- التحليل الثقافي ، ميشال فوكو وآخرون ، ترجمة : فاروق أحمد مصطفى وآخرون ، المركز القومي للترجمة – القاهرة ٢٠٠٨.م.
- التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور ، د. مصطفى حجازي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء وبيروت ، الطبعة التاسعة ٢٠٠٥.م.
- التشابه والاختلاف نحو مقاربة شمولية ، محمد مفتاح ، المركز الثقافي العربي – بيروت ولبنان ١٩٩٦.م
- الحضارة الاندلسية بأقلام اسبانية جهود حركة الاستعراب – الاستشراق الاسباني في نشر التراث الاندلسي ، د. رضا هادي عباس ، دار الشؤون الثقافية – بغداد ٢٠١٦.م.
- دراسات في تاريخ مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، أ. د. سحر السيد عبد العزيز سالم . مؤسسة شباب الجامعة – الاسكندرية ٢٠٠٦.م.
- ديوان جرير، دار بيروت، بيروت ١٩٨٦- بيروت ١٩٨٧.م.
- ديوان الفرزدق، شرحه وضبطه وقدّم له علي فاعور، دار الكتب العلمية(د.ت)
- ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق : محمد أبو الفضل أبراهيم ، دار المعارف – القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٩٠ . م .
- الذاكرة في الرواية العربية المعاصرة ، د. جمال شحيّد ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت ودار الفارس – عمّان ٢٠١١.م.

- السرد العربي القديم الانساق الثقافية وإشكاليات التأويل ، د. ضياء الكعبي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت ٢٠٠٥ .م .
- سياسة صلاح الدين الأيوبي ، دريد عبد القادر نوري ، مطبعة الارشاد – بغداد ١٩٧٦ . م.
- سيسيولوجيا الأزمة المجتمع العراقي نموذجاً ، د. مازن مرسول محمد ، الحضارية – بغداد ومؤسسة العارف – بيروت ٢٠٠٨ .م.
- سيكولوجية الجماهير ، غوستاف لوبون ، دار الساقي – بيروت ، الطبعة السابعة ٢٠١٦ . م.
- الشعر والشعراء، ابن قتيبة ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، دار المعارف – القاهرة ١٩٥٨.م.
- طبقات فحول الشعراء ، محمد بن سلام الجمحي (١٣١ – ٢٣١).هـ ، قرأه وشرحه : أبو فهر محمود محمد شاكر ، دار المدني – جدة (د.ت)
- العقد الفريد ، أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي ، راجعه وحققه : أبراهيم محمد صقر ، مكتبة مصر – القاهرة – ٢٠٠٨. م.
- علاقات الحضور والغياب في شعرية النص الأدبي مقاربات نقدية، د. سمير الخليل، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد – ٢٠٠٨.م
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده – أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني ٣٩٠ – ٤٥٦ هـ /١٠٠٠ – ١٠٦٤ .م ، قدمه وشرحه وفهرسه : د. صلاح الدين الهوّاري و أ. هدى عودة ، دار ومكتبة الهلال – بيروت ، ٢٠٠٢.م
- عيار الشعر ، محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي ، تحقيق وتعليق : محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف – الاسكندرية ٢٠١١.م.
- القراءة النسقية سلطة البنية ووهم المحايثة ، أحمد يوسف ، الدار العربية للعلوم ناشرون – بيروت والاختلاف – الجزائر٢٠٠٧.م.

- الكامل في التاريخ ، ابن الأثير الجزري الملقّب بعز الدين ت٦٣٠هـ ، تحقيق : خيري سعيد ، المكتبة التوفيقية – القاهرة (د.ت) .
- كتاب العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي ت١٧٠هـ ، ترتيب وتحقيق : د. عبد الحميد هنداوي دار الكتب العلمية – بيروت ٢٠٠٣هـ.
- لسان العرب ، ابن منظور ٦٣٠هـ ٧١١هـ ، اعتنى بتصحيحه : أمين حميد عبد الوهاب ومحمد صادق العبيدي ، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي – بيروت ، الطبعة الثالثة (د.ت)
- المحاسن والمساوئ ، أبراهيم بن محمد البيهقي ،دار الشريف الرضي – قم ، ١٤٢٣هـ .
- مدخل إلى نظرية الأنساق ، نيكلاس لومان ، ترجمة : أحمد يوسف حجازي منشورات : الجمل كولونيا (المانيا) – بغداد ، ٢٠١٠م.
- المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك ، د. عبد العزيز حمودة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب – الكويت ١٩٨٨ .م.
- مصر في حربين ١٩٦٧-١٩٧٧ دراسة مقارنه لبيان اسباب الهزيمة ودعائم النصر ، د. أحمد شلبي ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثانية ١٩٧٥.م.
- المصطلحات، المصطلح السردي ، جيرالد برنس ، ترجمة عابد خزاندو المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة ، ٢٠٠٣
- معجم المصطلحات الأدبية ، سعيد علوش ، دار الكتاب اللبناني – بيروت وسوشبرس – الدار البيضاء ١٩٨٥.م.
- معجم مقاييس اللغة ، أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا (...-٥٣٩هـ) تحقيق وضبط : عبد السلام محمد هارون ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده – القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٦٩.
- مقامات السرد والأنساق الثقافية ، عبد الفتاح كليطو ، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي ، دار توبقال – الدار البيضاء – المغرب ١٩٨٣ .

- المقموع والمسكوت عنه في السرد العربي، فاضل ثامر، دار المدى . دمشق وبيروت وبغداد ٢٠١٤م.
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء ،أبو الحسن حازم القرطاجي ، تقديم وتحقيق : محمد الحبيب بن الخوجة ، دار الغرب الاسلامي – بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٨٦ .م.
- مهزلة العقل البشري، د.علي الوردي ، دار ومكتبة دجلة والفرات – بيروت ٢٠٠٩.م.
- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري ، أبو القاسم الحسن بن بشير الآمدي ، تحقيق : أحمد صقر، دار المعارف – القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٧٢.م.
- الناصرية ثورة بيروقراطية أم بيروقراطية ثورة، د. أسعد عبد الرحمن جامعة الكويت ١٩٧٧م.
- النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي . الدار البيضاء وبيروت ، الطبعة الرابعة ٢٠٠٨م.
- نقد الشعر، أبو الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق: د. عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية . بيروت (د.ت).
- الوساطة بين المتنبي وخصومه، علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل أبراهيم وعلي محمد البيجاوي، المكتبة العصرية . بيروت ٢٠٠٦م.

ثانيا: الشبكة العالمية / النت

- ماهي الأبوة السياسية والاقتصادية، وكيف انكسرت هذه العلاقة الأبوية خالد الخميس مقال على الموقع

Blognews Cal-maqal.com.

- المقدس والمدنسّ، وليام سواتوس، منتديات عمّوشيه/ مقال على الموقع:

T180-TOPiC,AMOiCHia.MaNg.COM